

القيم الأخلاقية للعربي من خلال الشعر الجاهلي

(*) د. صالح مفقودة

تحاول هذه الدراسة تصحيح خطأ طالما تكرر في الدراسات الأدبية والتاريخية ، وهو الحكم على الإنسان الجاهلي بالتخلف والبساطة والجهل وقد يعود السبب في تلك الأحكام القاسية إلى الانطلاق من مواقف مسبقة تعتمد التفسير الخاطئ للفظ الجاهلية ، أو تحكم على العربي من خلال طبيعة الصحراء الجافة والقاسية.

والحكم الصحيح في رأينا هو الذي ينطلق من الشعر الجاهلي الذي يعد خير معبر عن الأخلاق العربية الأصيلة الممثلة في الكرم العربي والشجاعة

وقد بدت لنا جملة من الصور الرائعة عن الكرم العربي الذي يتميز بأنه كرم من أجل الكرم ، والشجاعة البعيدة عن كل تهور ، والتي تعني الصدق مع النفس ومع الآخرين ، وهي الفضائل التي أكدها الإسلام فيما بعد

العربي و البيئة:

من المسلم أن لكل بيئة أثرا في سكان أهلها و أخلاقهم، غير أننا نريد أن نتجنب في هذا الصدد، تلك الأحكام التي تنطلق مباشرة، إلى الحكم

* أستاذ محاضر بقسم الأدب العربي - جامعة يسكرة - الجزائر

على الإنسان العربي من خلال البيئة الجاهلية، فقد بدت حسبما لاحظنا هذه البيئة لا ككل البيئات إذ صورت على أنها جحيم لا يطاق، و رغم أنها أرض طبيعية لينة واسعة ناعمة يحلو العيش فيها في بعض الأحيان، و يصعب في بعض الأحيان، إلا أن الدارسين نظروا إلى هذه المنطقة بمنظار غريب، و حكموا على العربي من خلال ذلك.

و يبدو في مثل تلك الأحكام إجحاف، و مغالطة بسبب النظرة الجغرافية للبيئة، فبعضهم يرى أن لفظة الجاهلية في حد ذاتها دليل كاف على الحكم على إنسان هذه الحقبة بصفات لعله كان بريئا منها، يقول الأستاذ خليل هنداي: «على أن الأقدمين قد أسرفوا كثيرا في وسم الأخلاق الجاهلية بالأخلاق الفظة القاسية و هم ما فعلوا ذلك إلا ليعيدوا نتيجة المقارنة بين المثل الجاهلية، و المثل الإسلامية و ليس عندي ما يمنع أبدا أن نصحح أحكامنا على أخلاق العرب من خلال نصوصهم و تراثهم الفكري»^(١)

فلنتجنب الأحكام الجاهزة -إذن- و لنعمد مباشرة إلى استقراء شعرنا القديم لنكشف عن القيم الأخلاقية حسبما تنطق بها هذه القصائد، و من خلال ذلك نتعرف على جوانب عديدة من الشخصية العربية قبل الإسلام، فكما يقول الدكتور جبرائيل جبور: «....الشعر القديم هو الذي يمثل الخلق العربي الصميم.»^(٢)

و ضروري أن نعرف طبيعة الخلق العربي لأن نفسية العربي القديم ما تزال تظهر في سلوكنا، وكما يقول الدكتور يوسف العش في معرض حديثه عن نفسية العربي: «قلت في نفسي: أليس مخجلا ألا نعرف طبيعة العربي و طبيعته هي التي توجه مستقبل بلادنا، وهي التي رسمت ماضينا، و ترسم حاضرا.»^(٣)

ولنكتشف عن بعض الجوانب الأخلاقية من الشخصية للعربي كما صورها الشعر الجاهلي، دون أن نهمل بطبيعة الحال البيئة التي ظهر فيها هذا الشعر، غير أننا نطالب بنظرة كلية لهذه البيئة التي تحتوي على جوانب الحياة المختلفة، كما تحتوي على أسباب الموت، وليست هذه الصحراء شرا كله كما أنها جنة فيجاء، ففي ما يتعلق بالجانب السهل، فإننا نجد بساطة العيش وطبيعته، و انعدام التكلف كما نجد سيطرة العواطف الإنسانية. أما فيما يتعلق بالجانب الآخر، فقد صور لنا الشعراء بيئة قاحلة، يندر فيها الماء، و يقل العشب. و لقد كان لصعوبة هذه البيئة وقسوتها أثر على جسم الإنسان العربي و أخلاقه إذ عرف بالصبر هو و حيواناته التي يستخدمها، و لم يكن تأثير هذه البيئة على جسم الإنسان فقط بل أثر على الناحية الأخلاقية، فكان لهذه الطبيعة أثر كبير على القيم التي سادت في هذا العصر و التي نجدها في قصائد الجاهلية.

و الحقيقة أن قسوة بيئة الصحراء، و صعوبة المسالك فيها لم يكن ليخلق إنسانا قاسيا مقيدا عن الانتقال، بل أننا نجد أن هذا الإنسان لا يمثل هذه البيئة فقط بل يسود عليها، إنه يخضع لها أحيانا و لكن من أجل السيطرة عليها، فلم يكن العربي يعيش في عزلة وسط هذه الصحراء على نحو ما يذهب إليه عبده الشمالي في قوله: «و البيئة الجاهلية عبقة برائحة الإبل و الصحراء، و مترامية الأطراف، صعوبة المواصلات، نادرة الطرق، وفرة المسالك شمسها محرقة و رمالها كاوية، تهب فيها الزوابع، فتنتقل الرمال من مكان إلى آخر و ترفع منها جبالا لا تلبث أن تزول، أو تنصب تلالا في مواضع جديدة نائية و هذه الصعوبات الطبيعية جعلت الاتصال بالخارج عسرا شبه مستحيل، و صدت الجاهلي عن الاكتراث لما

هو خارج جزيرته، و محاولة الإطلاع على حالة الأجانب و الاهتمام بعلومهم و فلسفتهم، و لذلك سميت شبه الجزيرة العربية "جزيرة" (٤)

حقا إن شبه الجزيرة العربية هي كما وفها عبده الشمالي بيئة صحراوية صعبة و لكن هل جعلت هذه الطبيعة الإنسان العربي يعيش في عزلة؟

إننا لا نذهب إلى ما يذهب إليه عبده الشمالي فهناك عدة أدلة تثبت اتصال العرب بغيرهم، و بجيرانهم بصورة خاصة، عن طريق التجارة خاصة، وإذا كانت الطبيعة قاسية فإن العربي كان مؤهلا لهذه الطبيعة عارفا بأسرارها وخبايها. و لم تكن حياة العرب مستقرة معزولة، بل كانت قائمة على التنقل والحركة بصفة عامة. و من هذا فإن تأثير البيئة على العربي و أخلاقه أمر نقر به، و يؤكد عليه كثير من الباحثين. هذا الدكتور محمد زكي العشماوي يرد أخلاق العربي إلى طبيعة البيئة التي عاش فيها، يقول: «...إن الجفاف و الجذب و وعورة الحياة هي التي حددت القيم الأخلاقية عند العرب، فشعور العرب بالضعف أمام قوة الطبيعة و قسوتها هو الذي فرض عليهم تقديس القوة و البسالة، و هو الذي جعلها مبدأ من مبادئ السيادة عند العربي، وهو كذلك الذي ولد لشعور بالحاجة إلى واجب مقدس و هو واجب الضيافة و النجدة والمروءة». (٥)

فالدكتور محمد الدويهي يربط بين طبيعة الجزيرة العربية، و خلق الإنسان العربي، فالصفات التي امتاز بها العربي، و القيم التي كان يتمسك بها هي وليدة الظروف الطبيعية و الاجتماعية التي ينشأ فيها الإنسان حسب طبيعتها.

إن لقسوة الطبيعة، و قوة الأشياء ترجيع في نفس الشاعر يبدو من خلال القصائد، و يظهر في إقدام العربي و شجاعته. و معلوم أن الطبيعة العربية مع قسوتها كانت تحتوي على وسائل الحياة، و أسباب الخصب و

النماء، وكذلك الشخصية العربية كانت مع قوتها و صعوبتها شخصية حساسة عاطفية شفوفة، فالعربي يحرص كثيرا على إغاثة الملهوف المستغيث، ومساعدة الضعيف، وإكرام الضيف. ويربط الدكتور ريجس بلاشير أيضا بين قوة العربي ومزاجه الثائر والبيئة التي كان يعيش فيها فيقول: «ففي هذا العالم حيث فقدان الأمن حالة طبيعية، والغزو وسيلة للعيش، والثأر واجب مقدس فرض على البدوي أن يكون محاربا، ولم يكن إلا هذا حتى ولو لم يرتفع فوق مستوى الراعي البسيط، فمن واجبه حماية أمواله و عيون الماء و مواشيه، كما يجب عليه حماية الحضرين و إجبارهم على الإخلاص له».(٦)

و يرى أيضا أن هذه الطبيعة بهذه الصفات مضافة إلى رواسب عديدة من فقر و حرمان كل ذلك يجعل من العربي «سفاكا متكبرا حتى في حالات البؤس، سريع الانفعال و الغضب ميالا إلى ازدراء حياته و حياة الآخرين معجبا بالقوة مهما كانت نتائجها».(٧)

والحقيقة أن الإنسان العربي لم يكن هذا الإنسان الفظ الخشن، بل كانت فيه جوانب للين و المرونة، وهي الجوانب الإنسانية العاطفية مثل حبه للإغاثة، إكرامه للضيوف، ورفقه للضعيف، و يمكننا التطرق إلى بعض هذه القيم الخلقية من خلال الشعر لجاهلي، و المعلقات خاصة. يقول الدكتور جبرائيل جبور: «فإن الخلق العربي في أساسه لم يكن بهذه الفظاظة، و الخسونة كما يتوهم البعض، و لم تكن استجابة البدوي للعواطف الإنسانية استجابة سلبية ضعيفة بحيث لم تؤثر عليه كما أثرت حياة الغلظة و القساوة التي فرضتها عليه باديته، بل كانت استجابة إيجابية قوية تتفق حتى مع ما يظهر أنه مناقض لها في بيئته الخشنة القاسية».(٨)

أولاً: الكرم

لا يعني الكرم العطاء المادي فقط، بل يعني الكرم الداخلي النابع من النفس المتعاطفة مع الآخرين، و لذلك نجد ابن سيدة يعرف الكرم في كتابه المخصص بقوله: «الكرم: ضد اللؤم الذي هو شح النفس، و الكريم الصفوح الواسع الخلق».^(١)

و لا يكاد الناس قديما و حديثا يختلفون حول الكرم و وجوده عند العرب منذ الجاهلية بل في هذه الفترة خاصة، ومن ثم فقد امتدح بها الشعراء ممدوحهم، و افتخر بها الأبطال ، و يورد ابن سيدة مجموعة من الألفاظ الدالة على الكرم والعطاء نورد منها ما يلي:

السخاء - السماحة - الغيدان - الغمر - النوال - المنحة و المنيحة (و هي الناقة التي يعطيها رجل لرجل آخر ليشرب لبنها ثم يردّها)، و الرغد (و هو الصلة و العطية، و هو عطية بلا ثمن - التبرع - العارية) (و هي التي لاتعاد إلى صاحبها) - الجود - البذل...^(١٠)

و هذه الألفاظ الكثيرة و غيرها تدل على وجود هذه الصفة الأخلاقية المميزة للإنسان العربي، والتي تدل على مساعدة الفرد لأخيه دون محاسبة فيما بعد، فالكرم يشمل القضايا التي ترد و التي لا ترد، غير أن الكرم العربي من خلال هذه الألفاظ نجد أن صاحبه لا ينتظر الرد بل هو عطاء من أجل العطاء.

و قد ظهر الكرم في أسمى صورته متمثلا في الإيثار، الذي هو تفضيل الآخرين على النفس، فقد يكون المرء بحاجة إلى شيء و مع ذلك يقدّمه مع مستحقه.

و إذا نحن بحثنا عن أسباب هذا الكرم العربي، فإننا نجد الباحثين يقدمون آراء مختلفة، فمصطفى ناصف يرى أن هذه الصفة مقرونة دوما

مع غيرها من الفضائل بالتحدي، تحدي بواعث الموت و الهلاك، و تحدي غرائز الحياة بشكل واضح^(١١).

و يذهب الدكتور محمد النويهي إلى أن الكرم العربي القديم كان كرما ماديا هدفه تأمين المستقبل و الادخار ، إذ علم الناس أن المال غاد و رائج، و من هنا فإن الكرم في نظر محمد النويهي لم يكن نابعا من القلب، بل كان كرما ماديا^(١٢).

وقبل أن أقدم وجهة نظري حول أسباب و دواعي الكرم، يجدر بنا استعراض بعض صور الكرم الواردة في الشعر الجاهلي، ليكون حكمنا مساندا إلى دليل.

مظاهر الكرم العربي:

من مظاهر الكرم العربي نحر الناقة، و أكل لحمها، نجد الشاعر امرؤ القيس^(١٣):

ويوم عقرت للعذارى مطيتي فيا عجباً لرحلها المتحمل
فظل العذارى يرتمين بلحمها وشحم كهذاب الدمقس المقتل^(١٤)
فهو يذكر هذا اليوم، ويعتبره من الأيام الخالدة في ذاكرة الزمن، وكأن نحر ناقته أحسن ما يخلد هذا اليوم الممتع، إن الشاعر امرؤ القيس لا يبخل بأمواله، و لهذا نجده يقول مرة أخرى، مخاطبا الذئب^(١٥).

كلتا إذا ما نال شينا أفاته ومن يحترث حرثي و حرثك يهزل
و نجد صورة أخرى لنحر النوق في شعر طرفة ابن العبد، إذ يقول^(١٦) :

وبرك هجود قد أثارت مخافتني نواديه أمشي بعضب مجرد^(١٧)
فمرت كهاة ذات خيف جلالة عقيلة شيخ كالويل يسندد^(١٨)
تقول و قد تر الوظيف وساقها ألسـت ترى أن قد أتيت بمؤيد^(١٩)
وقال: ألا ماذا ترون بشارب شديد عليكم بغيه متعمد^(٢٠)

وقال ذروه إنما نفعها له وأبى تفكوا قاصي البرك يزدد^(٢١)
 فضل الإمام يمثلان حوارها ويسعى علينا بالسديف المسرهد^(٢٢)
 فطرفة ابن العبد يثير مخافة النوق لأنه إذا قام بالغ في الذبح كرما و
 سخاء.

وهذا الكرم يبدو في الإقبال على الشرب، وفي الضيافة و لن تجدي مقاومة
 الضيوف للكف من نحر الإبل، بل إن ذلك يزيده إسرارا على الذبح، و
 هكذا تظل الإمام تسعى بالسيف المسرهد فيكون يوما من أيام الحياة يستحق
 التسجيل و الخلود، يقول جبرائيل جبور: «و لعل أبلغ صورة في الشعر
 العربي للكرم هي ما ذكره طرفة ابن العبد في كيف (هكذا) ينهض بسيفه
 إلى نياقه الباركة، فتفر منه لأنها تعلم أنه لا يفاجئها إلا لينحر منها
 لأضيافه، فيأخذ يعقر ما ندر و هرب منها، و يحاول أضيافه إيقافه عند حد
 فيرد عليهم أحد أصحابه: «دعوه و شأنه، و إلا فإنكم إذا عارضتموه ازداد
 عقرا و نحرا لها».^(٢٣)

و في قصيدة لببب المعلقة نجد الأبيات الآتية تصور نحر النوق و توزيع
 لحومها على المستحقين من الجائعين و الأرامل يقول^(٢٤):

وجزور أيسار دعوت لحفها	بغلق متشابه أعلامها ^(٢٥)
أدعو بهن لعافر أو مطفل	بذلت لجيران الجميع لحامها ^(٢٦)
فالضيف و الجار الجنيب كأثما	هبطا نبالة مخصبا أهضاما ^(٢٧)
تأوي إلى الأطناب كل ردية	مثل البلية قالص أهدابها ^(٢٨)
ويكلون إذ الرياح تنلوح	خلجا تمد شوارعا أيتامها ^(٢٩)
إنما إذا التقت المجامع لم يزل	منا لزاز عظيمة جشامها ^(٣٠)
ومقسم يعطي العشيرة حقها	ومغذمر لحققوقها هضامها ^(٣١)
فضلا وذو كرم يعين على الندى	سمح كسوب وغائب غنامها ^(٣٢)
من معشر سنت لهم أبأؤهم	ولكل قوم سنة و إمامها ^(٣٣)

لا يطبعون ولا يبور فعالهم إذ لا يميل مع الهوى أحلامها^(٣٤)

دواعي الكرم العربي:

كل الباحثين و الدارسين متفقون على كرم الإنسان العربي، و لكنهم يختلفون في الأسباب المؤدية إلى هذا الكرم، ففي حين يرى بعضهم أن السبب يرجع إلى حب المساعدة، و الشفقة على الآخرين، يرى البعض الآخر أن السبب يعود إلى الرغبة في تأمين المستقبل، و سنتعرض لهذه الأسباب الداعية للكرم مناقشين إياها و مدللين على ذلك بالشعر نفسه.

التوازن الاجتماعي:

من بين الأسباب الداعية إلى الكرم العربي في العصر الجاهلي تحقيق التوازن الاجتماعي بين الموهوبين و المحرومين، و هذا ما جعل بعض الناس يقتسم أمواله مع الآخرين، و لنا في ظاهرة الصعلكة خير مثال على نشأة هذه الأفكار الداعية إلى فك البعد بين الطبقات الاجتماعية، و من هنا نجد الداعي أو الآداب في العصر الجاهلي يدعو الجميع، و لم يكن الكرم خاصا بجماعة دون أخرى، وفي هذا دليل على النزعة الإنسانية التي يتصف بها العربي، و نجد في ظاهرة الأخذ بالثأر و الأحلاف جانباً يدل على النزعة الجماعية.

إثبات النفس و تحقيق الوجود:

يقال أحيانا إنه لولا زهير لما ذكر هرم بن سنان، ولولا المتنبّي لما اشتهر سيف الدولة، فالشعراء هم الذين يخلدون الأشخاص، ونحن على علم بأن سبب تخليد الشعر لهؤلاء هو كرمهم، فقد كان هرم بن سنان كريماً حين دفع الديات، كما كان سيف الدولة كريماً مع المتنبّي، فالكرم إذن وسيلة للذكر، هذا ما آمن به الناس منذ القدم، حيث كانوا يشترون أحاديث

المجد و البقاء، و الذكر الحسن بالكرم و السخاء و البذل، فحين يتوفى الشخص الكريم يبقى ذكره بعد وفاته. هذا ما يمكن فهمه من خلال الشعر. بالإضافة إلى السبب السابق، يقول الدكتور مصطفى ناصف عن الكرم الجاهلي: «لقد امتدح الشاعر العربي منذ القدم الكرم و صور الرجل الفاضل، و لكن صورة الرجل الفاضل أو المثل الأعلى كانت تصدر عن بواعث... فصورة الكرم و النجدة في الشعر مقرونة -دائما- بتحدي بواعث الموت و الهلاك، هذا واضح في الكرم وضوحه في النجدة و الشجاعة و لذلك فالوصف الدقيق للبذل ليس هو الكرم و الشجاعة، و إنما هو موقف خاص إزاء بواعث حفظ الذات و تحدي غرائز الحياة بشكل واضح». (٣٥)

إن الكرم كان وسيلة من وسائل البقاء في نظر الدكتور، و لم يكن كرما هكذا بدون هدف، فالعربي ينتظر من هذا الكرم أن يبقيه، ويخلده، و نعتقد أن هذا الرأي سليم لوجود ما يدعمه في الشعر فهذا طرفه يقول بعد تصويره لنحر الناقة: (٣٦)

فإن مت فأنعني بما أنا أهله و شقي علي الجيب يا ابنة معبد

تأمين المستقبل:

ذكرنا أن الإنسان الجاهلي كان يتمسك بصفة الكرم، من أجل أن يذكر في المستقبل حتى بعد وفاته، و لم كن يهدف إلى تسأمين المستقبل فحسب، بل كان هدفه أبعد من ذلك خلافا لما يراه الدكتور «النويهى» الذي يقول: «اهتدى الجاهليون إلى الكرم كوسيلة للاختيار من هذا القلب، و تخفيف أسوأ عواقبه، فهو نوع من ضمان المستقبل، أو صفة (التأمين الاجتماعي) إن شئت. فالمال كما يقول شاعرهم غاد و رائج، و لا يبقى منه إلا الأحاديث و الذكر، إن اشتهر عنك أنك كنت كريما في زمن غناك،

فهذا أجدر أن يحمل الآخرين على معونتك إذا افتقرت و احتجت لذلك». (٣٧)

إن الكرم هو وسيلة لتأمين المستقبل، فالعربي يكرم الآخرين من أجل أن يتلقى منه العطاء، و هذا الرأي صحيح إلى حد ما، نجد الشاعر زهير يقول:

لحي حلال يعصم الناس أمرهم إذا طلعت إحدى الليالي بمعظم (٣٨)
كرام فلا نو الوتر يدرك تلبه أديهم و لا الجاني عليهم بمسلم

و لكن هل ما يقدمه العربي ينتظر منه الرد؟

إننا حين نتتبع الأشعار نجد الإنسان العربي يميل إلى الكرم المتواصل و المتزايد، حقيقة هو ينتظر الجزاء و لكن كدليل و رمز على الاعتراف به، و ليس حبا في هذا الرد، إنه يكتفي بأن يرد على كرمه بالقول الحسن و كفى، و على ذلك فإن الكرم العربي، كان من أجل مقاومة الموت و الهلاك سواء بالنسبة للشخص الذي يقدم المكارم أو الشخص الذي يتلقى العطاء. ففي اعتقادي أنه ينبغي أن نحسن النية بهذه الصفة العربية الأصيلة التي اتصف بها العربي، من تقديم المساعدة للضعفاء و نحر الناقة للضيوف، إن ذلك يفوق أن يكون ادخارا للمستقبل، خاصة أنه موجه للضعفاء و المساكين، يقول فيليب حتي: «و يظهر الكرم في البدوي حين يبدي استعدادة لنحر ناقته، وتقديمها طعاما للضيف أو لإطعام الفقراء و المساكين». (٣٩)

إن العربي كان يهدف من كرمه إلى تقديم مساعدة للآخرين، و الانتصار على الموت و الاعتداد للمستقبل، و قد كانت هذه هي عينها أسباب الكرم إضافة إلى متطلبات البيئة الجاهلية التي تفرض التعاون و المساعدة.

ثانياً: الشجاعة و الإقدام

طبيعة الشجاعة العربية:

عرف الإنسان العربي بالشجاعة و الإقدام و قد سجل ذلك في شعره، و الشجاعة عند الجاهلي تعني الإقدام على الحياة و الإقبال على كل ما فيها من ملذات و آلام دون خوف أو خجل فقد كانت طبيعة العربي مجبولة على الصراع مع الطبيعة دون خضوع.

ومن ضمن الأمور التي تدفعهم إلى الشجاعة، إيمانهم بأنه لا مفر من الموت، وأن الجبن لا يقي من الموت، بل أنهم أخذوا قاعدة من الحياة مفادها أن من يقتل مدبراً أكثر ممن قتل مقيلاً، يقول صاحب العقد الفريد: «و تقول العرب (أن) الشجاعة وقاية و الجبن مقتلة، و اعتبر (من) ذلك، (أن من) يقتل مدبراً أكثر ممن يقتل مقيلاً»^(٤٠).

و من ثم فقد تعود العربي على الإقدام، و حرص على تعليمه لأبنائه و تعلم التحدي، تحدي كل شيء مهما عظم، و لكن الشيء الذي ينبغي التنبيه إليه هو أن العربي لم يكن يقدم على الموت بجهل و تهور، بل أن الشجاعة في مفهومه تقتضي المحافظة على النفس و مجانبة الأخطار حتى إذا ما تأكد من أنه لا سبيل سوى خوض المعركة خاضها بكل قوة، يقول عمرو بن كلثوم: (٤١)

ألا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

و لقد بلغ من شدة حبهم للإقدام أنهم كانوا يمتدحون الظلم أحياناً، و التعجيل بالحرب، و الذي لا تكون لديه القدرة على هذه الأعمال يمكن أن كون عرضة لظلم الآخرين. يقول عمر الدسوقي عن الشجاعة العربية المتصفة بعض الفضائل و الصفات الإنسانية الأخرى ما يلي: «و كان من أبرز صفاتهم شجاعة فيها قوة، و تحد للسانية و فيها دربة و تفوق في استعمال الأسلحة المختلفة، و فيها إنسانية و كرم، و إنصاف للأعداء، و وفاء للوعد» (٤٢)

كان من أبرز خصائص الشجاعة عندهم نبيل الوسيلة، فلم يكن يهمهم النصر النهائي بقدر ما كانت تهمهم طريقة النصر نفسها على اعتبار أن الوسيلة في نظر هؤلاء جزء لا يتجزأ من الهدف.

إن العربي حين يتحتم عليه خوض معركة فإنه لا يتقاعس، ولا يتردد، وإنما يمضي إلى هدفه مباشرة فيما عرف بالحزم والعزم، يقول الدسوقي: «و الشجاعة تقتضي أن يكون الفتى ذا عزيمة و حزم، و لا يتردد و لا يتلوم، و إلا قضى عليه ترده و تقاعسه، فهو يناجز فرسانا شجعانا، فلا بد أن يكون قوي الجنان نافذ الرأي ذا بصيرة».^(٤٣)

مظاهر الشجاعة:

من مظاهر الشجاعة تلبية النداء و قت الخطر، و النهوض للدفاع عن القبيلة و قت الحرب، و قد تغنى الشعراء بذلك كثيرا، و خير مثال على ذلك ما نجده في قصائد الحارث بن حلزة اليشكري، عنتره بن شداد و عمرو بن كلثوم.

و هناك مظهرا آخر من مظاهر الشجاعة و الإقدام، و النهوض بعبء الأخذ بالنار، و الأخذ بالنار عادة استحكمت في نفوس الجاهلين إلى حد بعيد إلى درجة أن أصبحت عقيدة ينبغي على الشخص القيام بها، و إلا لحقت به اللعنة و نال شتيمة الدهر و سبة الأبد، يقول الدكتور شوقي صيف: «كان أكبر قانون عندهم يخضع له كبيرهم و صغيرهم هو قانون الأخذ بالنار فهو شريعة تصطبغ عندهم بما يشبه الصبغة الدينية، إذ كانوا يحرمون على أنفسهم الخمر و النساء و الطيب حتى يثأروا من غرمائهم».^(٤٤)

و السبب في اهتمام الجاهلين بعادة الأخذ بالنار هو الحرص الكبير على كرامة العشيرة أو القبيلة حتى لا يستهان بها فتستذل، و تستأصل.^(٤٥)

و كان في اعتقادهم أن الميت حين يموت مقتولا يظل طائرا على رأسه يقول اسقوني إلى أن يسقى الدم، و قد شرح «نكلسن» عادة الأخذ بالنار

شرحاً جيداً، فقال: «...فإن الدم يستدعي الدم، و كان هذا الالتزام ثقيلاً على ضمير الوثنيين فالأخذ بالثأر كاد أن يكون بالنسبة لهم (ضرورة طبيعية فإذا لم يستجب لها حرمت صاحبها النوم و الطعام و الصحة)...فهو مرض في الشرف قد يوصف بالجنون....و كان المعتقد أن روح القتيل تظهر فوق قبره بصورة (هامة أو صدى) يصرخ (إسقوني) إلى أن يؤخذ بثأره»^(٤٦)

لقد كان إذن لعادة الأخذ بالثأر نصيب كبير في قيام الحروب، تلك الحروب التي كانت تستدعي الأخذ بالثأر، و كذلك فقد كان العربي يعيش حلقة دائرية بين الثأر و الحرب و من مظاهر الشجاعة و الكرم إغاثة الملهوف، و مساعدة المحتاج و تلبية النداء، و قد كان بعضهم يوقد النيران ليلاً ليهتدي إليه المسافرين و الفارون و الضالون، و هذا المظهر من مظاهر الشجاعة و الكرم قد يؤدي بالإنسان إلى التضحية بالنفس، حماية الآخرين، و إسعاداً لهم فهو يقوم بخدمة إنسانية.

و من أبرز خصائصهم أنهم لا يسألون المستغيث عن سبب طلب الغوث، بل يسارعون إلى إغاثة قبل كل شيء. إن العربي يحمي المستغيث مهما كان الجرم الذي ارتكبه و في مجال الإغاثة يساعد حتى عدوه. و يدخل ضمن الإغاثة الأسير في الحرب، كما أن العربي يتصف بعدم إذاية النساء و العجزة من شيوخ و أطفال فقد كان الفارس العربي الشهم، يبحث عن الفارس الشجاع الذي يستطيع مبارزته، و من هنا لا نجد الشعراء يصفون أعداءهم بالضعف بل يصفونهم بالقوة، هذا عنبرة بن شداد يصور شجاعة و بسالة خصمه في ميدان القتال^(٤٧):

بطل كأن ثيابه في سرحه يحذى نعال السبت ليس بتوأم^(٤٨)

و كان العربي يهدف من خلال هذه الفضيلة الى تحقيق رغبة إنسانية هي التعاون و المساعدة و الوقوف ضد الطبيعة الصعبة القاسية، وفي ذلك كرم و شجاعة، فضيافة إنسان غريب، ودعوته و إكرامه يعد مظهرا بارزا من الكرم، ليس الكرم المادي المتعلق ببذل المال فقط، بل إنه يتعلق أحيانا ببذل النفس، وهذه شجاعة نادرة يسعى العربي إلى الإتيان بها فيجعلها طرفة من ضمن الأشياء التي يحرص عليها يقول^(٤٩):

و لولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عودي^(٥٠)

فمنهن سبقي الالعاذلات بشربة كميته متى ما تعل بالماء تزيد

وكزي إذا نادى المضاف محبا كسيد الغضا نبهته يد المتورد^(٥١)

و من مظاهر إقدام العربي و عدم تردده الوفاء بالوعد، سواء كان هذا الوعد مع شخص مات أم مازال حيا، و سواء كان هذا مع عدو أو صديق، إن الوعد هو احترام الكلمة، و عدم التراجع و التردد فيما أخذه العربي على نفسه، فقد كان العربي يتمسك بالكلمة إلى درجة التقديس، و إن الوفاء بالوعد كان شرطا أساسيا للشجاعة و القوة فالشجاع هو الصريح الذي لا يخشى أحدا^(٥٢).

إن الوفاء يرتبط عند العربي بالشجاعة، و قد كان العربي يحرص على الوفاء و مقابل ذلك كان يخشى أن يوصف بالغدر الذي يسبب له العزلة، و ذلك أكره ما يكرهه العربي، يقول الدسوقي: «كان العربي يخشى أن يعرف بالغدر، و تشيع عنه هذه الخلقة بين قومه و بين سواهم من القبائل، لأن الغدر و نقض العهد، و إخلاف الوعد يجعله رجلا لا يعتمد عليه في النائبات فيهمله قومه، و يتحاشاه طلاب الغوث و النجدة، و ينفر منه أعداؤه و أصدقاؤه، و هيهات لرجل يتصف بهذه الصفة، و تكون حاله كما ذكرت أن ينبه إسمه، أو يكون من ذوي الرأي و الجاه في قبيلته، و هو ما يحرص عليه كل ذي مروءة»^(٥٣)

و هكذا نجد أن للإنسان العربي رغبة ملحة في تقديم خدمات للآخرين، و تقديم المثل الأعلى في كل شيء، يريد أن يكون متقدما عن غيره دائما، و قد كان يقدم في سبيل ذلك كل ما يملك.

إن الوفاء بالوعد يبين تلك الأهمية التي يوليها الإنسان العربي للوسيلة باعتبارها جزء من الغاية، و إن الطريق إلى الهدف هو جزء من الهدف في حد ذاته.

الهوامش

٠٠١. خليل الهنداوي (خلق العربي من خلال ديوان الحماسة) محاضرات الموسم الثقافي. ص ٩٧
٠٠٢. جبرائيل جبور (الناحية الإنسانية في الشعر القديم) محاضرات الموسم الثقافي. ص ٩٣
٠٠٣. يوسف العش (نفسية العربي) مجلة المعرفة السورية. ص ١٥
٠٠٤. عبده الشمالي (دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية. ص ٩٢
٠٠٥. محمد زكي العشماوي: النابغة الذبياني. ص ٢٢٠
- ٠٠٦-٠٠٧. ريجيس بلاشير: تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي. ص ٣٧
٠٠٨. جبرائيل جبور: المرجع السابق ص ٤٦
٠٠٩. ابن سيده: المخصص. ص ١٣٤
٠١٠. ابن سيده: المصدر السابق. ص ١٣٧
٠١١. مصطفى ناصف: دراسة الأدب العربي. ص ٢٩٢
٠١٢. محمد النويهي: الشعر الجاهلي. ص ٢٣٦
٠١٣. امرؤ القيس: الديوان. ص ٣٢
٠١٤. الدمقس: كل ثوب أبيض و الدمقس الحرير
٠١٥. حسن السندوبي: ديوان امرؤ القيس. ص ١٥٣
٠١٦. طرفة ابن العبد: الديوان. ص ٣٩
٠١٧. برك: جماعة من الإبل - هجود: نيام - نواديه: أوائله
٠١٨. كهاة: ناقة ضخمة مسنة - خيف: ضرع أو جلد الضرع - جلالة: جليلة - الوبيل: العصا الطويلة - يلندد: شديدة الحصومة.

١٩. تر: ندر - الوضيف: العظم الذي بين الرسغ و الساق - مؤيد: داهية
 ٢٠. بغية: ظلمه
 ٢١. يقصد أن تركه أحسن لأنه عنيد
 ٢٢. يمتلن: يشتوين في الملة و هي الرماد الحار و الجمر - السديف:
 قطع السنام - المسرمد:
 السمين.
 ٢٣. جبرائيل جبور: المرجع السابق. ص ٦٠
 ٢٤. لبيد: الديوان ص. ٣٢٠
 ٢٥. جزور: التي جزرت أي نحرت - أيسار: الذين يضربون على
 الجزرو بالقداح - مغالق:
 القداح التي تغلق الرهن و أحدها مغلق - الأعلام: العلامات.
 ٢٦. عاقر أو مطفل: الناقة و ربما العجوز - لحامها: لحمها
 ٢٧. هناك مثل من أمثال العرب (ما نزلت بنالة لتحرم الأضياف)
 ٢٨. رذية: المرأة التي أرذلها أهلها
 ٢٩. التكليل: تضد اللحم فوق الجفان - تناوحت: تقابلت رياح الصبا و
 الدبور، و الجنوب و
 الشمال
 ٣٠. لزاز عظيمة: قطاعها - جشامها: يركب معظمها
 ٣١. مغذمر من الغذامير و هو أن يرمى الكلام بعضه على بعض و
 المغذمر يعطي و لا يلتفت
 - هضامها: كسارها.
 ٣٢. سمع: سهل - الرغائب: الكثير من المال - غنامها: يغنمها و
 يصيبها.

٣٣. سنة: طبعة
٣٤. لا يطبعون: أي لا تدينس أعراضهم
٣٥. مصطفى ناصف: المرجع السابق ص ٢٩٢.
٣٦. طرفة بن العبد: الديوان ص ٣٩
٣٧. محمد النويهي: المرجع السابق ص ١: ٢٣٥
٣٨. الأعم الشنتمري: شعر زهير ص ٢٤
٣٩. فيليب حتي: تاريخ العرب. ص ١: ١٣١
٤٠. ابن عبد ربه: العقد الفريد. ص ١١٦
٤١. ابن الأنباري: شرح اللقصائد السبع الطوال. ص ٤٢٦
- ٤٢-٤٣. عمر الدسوقي: الفتوة عند العرب. ص ٢٩
٤٤. شوقي ضيف: العصر الجاهلي. ص ٦٢
٤٥. عمر الدسوقي: المرجع السابق. ص ٣٥
٤٦. رينولد نكلسن: تاريخ الأدب العربي. ص ١٥٨
٤٧. عنتر بن شداد: الديوان. ص ٢٧
٤٨. سرحة: شجرة طويلة جمعها سرح - السبت: جلود البقر إذا دبغت
٤٩. طرفة بن العبد: الديوان. ص ٣٢
٥٠. قام عودي: أي مت فلم أصبح في حاجة إلى وجودهم.
٥١. كري: عظمي من الكر عكس الفر، المضاف الملجأ - المحنب: النلتئ العظام -
- سيد الغضا: ذئب من أخبث الذئاب لأنه يختفي - نبهته: هيحته -
- المتورد: الطالب للورد.
٥٢. عمر الدسوقي: المرجع السابق. ص ١١٥
٥٣. عمر الدسوقي: المرجع نفسه. ص ١١٧

المصادر و المراجع

أ- المصادر

١. الأنباري، أبو بكر محمد بن القاسم: شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف مصر، ط. ٤، ١٩٨٠.
٢. ابن سيدة: المخصص
٣. ابن عبد ربه: العقد الفريد، تحقيق محمد العيد العريان، مطبعة الإستقامة بالقاهرة، ط ١، ١٩٤٠.
٤. الأعلام الشنتمري: شعر زهير ابن أبي سلمى، تحقيق فخر الدين قبّاوة دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط. ٣، ١٩٨٠.
٥. امرؤ القيس: ديوان امرؤ القيس، شرح الأعلام الشنتمري، تصحيح ابن أبي شنب، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر ١٩٧٤.
٦. حسن السندوبي: شرح ديوان امرؤ القيس، و معه أخبار المراقسة و أشعارهم، مطبعة الإستقامة، القاهرة، ط. ٣، ١٩٥٣.
٧. طرفة ابن العبد: ديوان طرفة ابن العبد، المكتبة الثقافية، بيروت، د.ت.
٨. عنتر ابن شداد العبسي: ديوان عنتر، دار صادر للطباعة و النشر، ١٩٥٣.
٩. لبيد ابن ربيعة: ديوان لبيد، تحقيق و تقديم إحسان عباس، وزارة الإرشاد، الكويت، ١٩٦٢.

ب- المراجع العربية

١. شوقي ضيف: العصر الجاهلي، دار المعارف، مصر
٢. عبده الشمالي: دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية و آثار رجالها، دار بيروت، ط. ٤، ١٩٦٥ م.
٣. عمر الدسوقي: الفتوة عند العرب، مكتبة نهضة مصر، الفجالة ١٩٥١.

٤. فيليب حتي: تاريخ العرب، مطول، دار الكشاف للنشر و الطباعة و التوزيع ط. ٣، ١٩٦١.
٥. محمد زكي العشماوي: النابغة الذبياني مع دراسة للقصيدة العربية في الجاهلية، دار النهضة للطباعة و النشر، ١٩٨٠.
٦. محمد النويهي: الشعر الجاهلي، منهج في دراسته و تقويمه، الدار القومية للطباعة و النشر، القاهرة.
٧. محمد ناصف: دراسة الأدب العربي، دار الأندلس للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، ط. ٣، ١٩٨٣.

ج- المراجع المترجمة

١. ريجيس بلاشير: تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي، تعريب ابراهيم الكيلاني، دار الفكر
٢. نكلسن رينولد: تاريخ الأدب العربي في الجاهلية و صدر الإسلام، ترجمة صفاء خلوصي، مطبعة دار المعارف، بغداد ١٩٧٠.

د- الدوريات

١. المعرفة : مجلة ثقافية شهرية تصدرها وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية السنة العدد
٢. محاضرات الموسم الثقافي، دار الكتب الوطنية، حلب، سوريا، ١٩٦٠.

القيم الأخلاقية للعربي من خلال الشعر الجاهلي

(^١) د. صالح مفقودة

تلخيص

تحاول هذه الدراسة تصحيح خطأ طالما تكرر في الدراسات الأدبية والتاريخية، وهو الحكم على الإنسان الجاهلي بالتخلف والبساطة والجهل وقد يعود السبب في تلك الأحكام القاسية إلى الانطلاق من مواقف مسبقة تعتمد التفسير الخاطئ للفظ الجاهلية، أو تحكم على العربي من خلال طبيعة الصحراء الجافة والقاسية.

والحكم الصحيح في رأينا هو الذي ينطلق من الشعر الجاهلي الذي يعد خير معبر عن الأخلاق العربية الأصيلة الممثلة في الكرم العربي والشجاعة

وقد بدت لنا جملة من الصور الرائعة عن الكرم العربي الذي يتميز بأنه كرم من أجل الكرم، والشجاعة البعيدة عن كل تهور، والتي تعني الصدق مع النفس ومع الآخرين، وهي الفضائل التي أكدها الإسلام فيما بعد

* قسم الأدب العربي - جامعة بسكرة - الجزائر